

مطالب الأديب العربي المهني وقضية الحرية

بقلم محمد الخزازي

الداخلية بين الأشياء ، لا بد ان يتحقق انشاء توفر ظروف معينة ، عكس المصادفة فهي « كل ما له اساس في غيره . اي انه لا ينبع من العلاقات الداخلية بين الاشياء ، بل ومن اسباب عرضية ، فيمكن ان يقع ويمكن ان لا يقع » .

لذا فليس مصادفة ، اولا ، ان يكون اختيار موضوع « مطالب الأديب العربي المهني من حصة العراق ، وليس مصادفة ، ثانيا ، بل بحكم الضرورة ، ان ترتبط المطالب المهني بوضع الأديب العربي في معركة المصير .

فماذا يريد الأديب العربي في معركة المصير أهم من الحرية اولا ، وآخرا ؟ والحرية ، كما قلنا ، هي فهم الضرورة .. اذن . فهووعنا لا يمكن فصله مطلقا عن السوايق السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تمر به الامة العربية بشكل خاص والعالم بشكل عام .. حيث تنطوي الحرية على افق اوسع من قضايا الوطن العربي ، وهي لا تنجز في قضاياها وفي ابعادها وفي ساحة تحرك الناس من اجلها ، هنا في ارضنا العربية ، او في اي مكان آخر من ارجاء العمورة ..

اذن فالحديث عن « المطالب المهني » فقط يدفع الى السقوط في « التبسيطية » - بمعنى رؤية السطح الخارجي للظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تتعلق بالبحث دون الفوص في اعماقها لاكتشاف العوامل المحركة الداخلية في كل ظاهرة ، والتأثيرات التي تتبادلها مع العوامل المحركة في الظواهر الاخرى - بكل تعقيداتها - واي مفكر جدلي يؤمن بالاشتراكية العلمية يرفض منطق التبسيطية هذا ، في اي بحث يتناول لمشكلات الأديب العربي ومطالبه المهني . اذ ان فهم البنية الطبقي لواقع المجتمع العربي (الذي لما بزل في اكثر من بقعة من وطننا ، مجتمعا وسيطا للامبريالية) بعيدا عن المنهجية التجزيئية والتي تؤدي - حتما - الى « تركيب ميكانيكي » - أي جمع حسابي للظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية - هذا الفهم التجزيئي سيبعدنا ، حقا ، عن وضع اليد على جرح القضية . وهو فهم تتناه البورجوازية الصغيرة المتذبذبة ، التي تحاول ان تسقط قيمها على الواقع ، فتبتعد - بالتشخيص - عن الامراض الحقيقية لهذا الواقع والتي

اذا كانت الحرية هي فهم الضرورة ، فاننا هنا لا ننظر اليها بمعزل عن قوانين الطبيعة ، بل في ضوء معرفة هذه القوانين وامكانيات استخدامها في النشاط العملي . واذا كانت الحرية ، هي المطلب الاساس ، منذ زمن بعيد ، وعلى صعيد انظمة حكم وقوانين واجيال ونورات .. فهي لما تزل تشكل مطلب الطالب . وهي لما تزل النقطة الاولى في جدول اعمال الساعة المعاصر . وبدونها ، لا يمكن ان ينظر الأديب العربي الى بقية الطالب ، مهنية كانت ، ام سياسية ، ام اقتصادية ، نظرة واضحة وعميقة .

ان الضرورة قوانين الطبيعة موجودة قبل ارادة الانسان ووعيه . وقد ظل الانسان قبل ان يدرس الضرورة يخبط خبط عشواء ، الا انه حالما ادركها استطاع ان يستخدمها في صالح المجتمع وعلى هذه الصورة .. فحرية النشاط الانساني - ومنه النشاط الادبي - ممكنة في حالة فهم الضرورة ، ويمكن القول ان الحرية هي الضرورة الواحة . وقد خضع الانسان في العصور الاولى من تطور المجتمع لعبودية اجتماعية الى جانب خضوعه للطبيعة ومع تطور الملكية الخاصة وقيام المجتمع الطبقي اصبح الناس عبيدا لعلاقاتهم الاجتماعية الخاصة .

لذا فان الأديب العربي ، الذي يطمح ان يجد المجتمع العربي جديدا ، مافى ومتكاملا ، يناضل في سبيل خلق هذا المجتمع بكل الوسائل جنبا الى جنب القوى الطبيعية في المجتمع ، وهو بهذا لا يفصل حركة الاشياء والظواهر عندما يمتلك وعيا ثوريا جديدا تتحكم فيه نظرية علمية اشتراكية .

اذ ان تطلعات الأديب العربي يجب ان تتخطى الواقع الحالي ، الى الواقع المطلوب عبر فهم الممكن من الامور ، الى تحقيق الضروري . من هنا فالاشتراكيون المسلمون يصرون بانه في ظل الاشتراكية تكف العلاقات الاجتماعية من السيطرة على الانسان ، على ان هذا لا يعني - من وجهة نظرهم - بان القوانين الموضوعية تختفي في زمن الاشتراكية ، وانما الذي يحدث هو ان الناس يستطيعون ان يستخدموا هذه القوانين في بناء حياتهم الجديدة . وهذه النظرة تجد صداها عند الأديب العربي الذي يطمح لبناء مجتمع عربي اشتراكي وانسان عربي جديد .

لذا فالضرورة - حسب مفهومنا - كل ما له اساس في جوهر الظواهر والعمليات نفسها - كل ما ينبع من العلاقات والصلات

ان هذه الموضوعة تحدد بوضوح الفارق الجذري بين فهمنا للثقافة وللمثقف العربي ، والاديب كواحد من المقاتلين على جبهات العدو ، من اجل انتصار امتنا العربية في معركة المصير ، وبين فهم الثقافة البورجوازية ، التي تسعى لتجزئة الاشياء وحصر السياسة للسياسيين او فيهم ، لذا تبعد ، الطالب المهنية ، عن مجموعة الظواهر والاشياء التي اوجدتها .

ان التأكيد على انسانية الثقافة الاشتراكية التي نسعى على تعميمها في الوطن العربي ، والمعارضة لكل استغلال وعسف ، هو اول مطالبنا السياسية والثقافية ، والتي تتفرع منه كل مطالبنا المهنية .. بل اننا نعتقد بان أية مطالب مهنية لا توفر الخبز والكرامة والحرية للاديب العربي بحيث يتحول نتاجه الى عمل تصوي وتواري في الحركة ، لا تتحقق ما لم يتوفر مناخ الديمقراطية المشبعة بحرية الاديب في اطار الالتزام ، لكي يعقد العلاقة والتواصل بينه وبين الجماهير في الاثر الادبي الفني ، محققا التلاحم التام بين فكره التقدمي وبين الثورة بمعطياتها اليومية وشمولها الانساني العام ، بحيث يتاح للاديب العربي ان يخلق الانارة المطلوبة من خلال اللغة ، ومن خلال فهمه لفنى التراث واستعمالاته الجديدة ، ثم من خلال الاستجابات الآتية لمتطلبات العصر ، وموقع ادبنا العربي في هذا العصر ، ثم من خلال استجابات ادبنا المعاصر للتغيرات الحاصلة في العالم ، وتداخل هذه الاستجابات مع استجابات الآداب العالمية والتراث الانساني لمتطلبات الحركة التي عاشها كل مجتمع من المجتمعات، وانعكاس ذلك على حركة التجديد في ادبنا العربي منذ الحرب العالمية الثانية ، وما كان يطمح له الاديب من حقوق ومطالب تندرج ضمن نضالاته التي خاضها ولم يزل ، دون انفصال عن مجمل تلك الحركات والاستجابات والتطلعات المشروعة ...

اقول ، ان مطالبنا المهنية لتتحقق - حتما - اذا تحقق لنا هذا التعميق لانسانية ثقافتنا العربية ، والثقافة الاشتراكية التي نطمح ونريد ان تكون في ارضنا العربية ، لان الاشتراكية - من وجهة نظرنا - هي البديل الآدوع والأوحد التي تحل كافة التناقضات والاشكالات التي عجزت كل أنظمة الحكم البورجوازية عن حلها ..

ثم ان الاشتراكية تجد الاستجابة الكاملة من لدن جماهير شعبنا على سعة الارض العربية ، لان حل معضلات البناء الثقافي والسياسي والاقتصادي هي موضع اهتمام وتطلع مشروع وعميق ، لدى هذه الجماهير الواسعة .. التي عانت ولما تزال من العسف والاضطهاد وخفق الحريات وبقايا الاستعمار والمصالح الاحتكارية ومن المؤسسات اليمينية الرجعية ، وقواها التنظيمية والقمعية في الوطن العربي .

ولان ثقافة اي شعب ، انما تنمو على تربته الوطنية الخاصة ، باشكال متواترة ماثورة ، مع الاستيعاب المتمثل لكل غنى الالوان القومية ، وافضل التقاليد وافكار الطبيعية « فاننا » نحب لغتنا ، ونحب وطننا ، الامر الذي نعمل من اجله اكثر ما نعمل ، والسليبي سيؤدي حتما الى النهوض بجماهيرنا الكادحة الى مستوى حياة واعية ، حياة ديمقراطية ، حياة اشتراكية .. انذاك - اذا تحقق لجماهيرنا الواسعة كل ما تصبو اليه - فسوف لن تبقى للاديب العربي مطالبه الخاصة . ومن هذا المنطلق فنحن نعتقد بان حركة المجتمع والحياة والتاريخ ، سوف تضع الاديب ضمن مسارها ، وبذلك لا تتجزأ وتنفصل الطالب المهنية عن الطالب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاي قطاع من قطاعات الشعب .

اذن فان الاديب العربي لما يزل يعاني من جملة مشاكل خاصة ، مهنية ، وان المطالبة بحلها اصبح - تقليدا - يطرح في المناسبات، لكن الاستجابة لها تسير ببطء هنا وهناك وعلى نطاق ضيق جدا .. فالاديب العربي لم يزل يشكو من التشريعات المالية والضريبية التي

تنجم عنها الثغرات الكبيرة التي تحول دون انسجام واتساق فكر الاديب العربي الثوري ، مع العديد من أنظمة الحكم وعقلياتها مما يسبب هذه الغربة القسرية التي يعاني منها الاديب العربي ، ويحس ان الحل في مطالبه المهنية دون تلبية مطالبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية عموما . مع الاخذ بنظر الاعتبار ان مطالب الاديب الكاملة لا تتوفر الا في المجتمع الاشتراكي ، غير ان هذا لا يمنع من النضال من اجل تحقيق ما يمكن تحقيقه في ضوء الانظمة القائمة .

لذا فان فهم الطبيعة الطبيعية لانظمة الحكم العربية (النسي تمتلك صياغة التشريعات وتمتلك القوى التنفيذية لها ..) ، وان فهم الطبيعة الاقتصادية لكل بلد عربي وما ينجم عنها من تحرك سياسي واجتماعي وثقافي ، يجب حصره ازاء « معركة المصير » واقعا ونحركا، استراتيجية وتكتيكات ... تدفع - بالضرورة - الى فهم طبيعة العلاقة الانتاجية والثقافية بين الاديب العربي ، وكل هذه التشريعات والانظمة، التي سببت - مع مرور الزمن - ازدياد مشاكله بحيث نجم عنها ذلك الاحساس بالمطالبة (المهنية) كجزء من الطالب العامة على جميع الاصعدة .

اذن ستبقى « الحرية » ، وستبقى « الديمقراطية » ، وستبقى طموحات الاديب العربي في تفسير بنية المجتمع العربي وتثوير الارض العربية كلها ، في سبيل خلق البديل الآدوع ، الذي يحقق أنظمة حكم ديمقراطية وجبهات نضال عريضة ، ووحدة مواقف ، واهداف ، وتنظيمات وتحركات ، لردم الهوة العميقة التي تتسع منذ ه حزيان ٦٧ - واحد الان ، بين الجماهير وبعض أنظمة الحكم العربية ، بحيث اصبحت قضية انتصارنا في « معركة المصير » حلما ، في الذهن والذاكرة .. ازاء هذا المد اليميني المتسع والعداء المستشري للديمقراطية والتقدميين في الوطن العربي عموما .

اذن فحرية النشر والتأليف والتعبير والتنظيم ، والتحرك من ثم ضمان حقوق الاديب في العمل والعيش والتفرغ ، وضمان مستقبله (تقاعد او ضمان اجتماعي) ، وشارك ممثلي الادباء في تشريع القوانين ذات العلاقة بشؤون الادب والثقافة وحل مشاكل النشر والتوزيع وازاحة العوائق (من رقابة وصعوبات مالية وتشريعية) لا تبدو مشاكل ومطالب منفصلة عن القضية الاساس : الحرية .

ان مبدأ الصلة - غير المنفصلة - التي تربط بين طموحات الاديب في الحرية وفي الانتصار بمعركة المصير ، والتي تربط ما بين البناء الثقافي واهداف بناء المجتمع العربي المتطور والجديد ، تدفع الى ادراك كون ان الاديب العربي الثوري - خاصة - لا يواجه مطالبه المهنية كشيء منعزل « خارج الزمان والمكان » بل يعتبر الثقافة والادب وما ينجم عنهما من مطالب مهنية « غير قابلة قط للانفصال عن سائر وجوه الحياة » والمجتمع والعصر .

ففي السابق لم يكن الفكر الانساني كله ، وعبقريته الانسانيان كلها ، ليخلفا الا ليعطيا للبعض كل خيرات التكنيك والثقافة ، ويعرما الآخرين من الضروري الذي لا غنى عنه من التعلم والتقدم .. اما الان ، فان انتصار الاشتراكية في العالم ، وبعد اتساع حركات التحرر الوطني ، والنهوض الجماهيري الجبار داخل العالم الثالث ، وازاء هذا الوعي المتصاعد بضرورة تحرير الارض والانسان من كل تبعات التخلف والاستعمار والعبودية والاستغلال والسعي بالانسان وبالمجتمع للارتقاء الى الافضل ، فان المهمة الاساس التي تطرح نفسها على ذهن الاديب العربي هي الا تتحول معطيات الفكر الانساني وعبقريته الانسان ابدا ، الى « وسائل للعنف والاستغلال » .. وهذه مهمة تاريخية تواجه كل الادباء التقدميين ، ليس في الوطن العربي وازاء معركة المصير وحسب ، بل وفي العالم اجمع .. « لانهم يحملون بداخلهم الطاقات الخفية العظمى للثورة والنهوض والتجدد .. » .

تستحصل على نتاجه الادبي بمعنى ان كل ما ينشره الاديب - من كتب خاصة - يدخل ضمن ايرادات ارباحه بعرف دوائر « صريبة الدخل » - مثلا -

كما ان الاديب العربي لما يزل يعاني من توزيع كتابه المطبوع الى خارج القطر ، لان العديد من الصناعات والعوائق والجمارك والكوس والتحويل الخارجي والرقابة ... الخ ، كل ذلك يحول دون اعتبار الكتاب رسول ثقافة ، بل يعتبر في عرف هذه التشريعات المالية والعقوبات « سلعة » . ومن هنا تظل اغلب الكتب المطبوعة داخل كل قطر ، وهذا يعارض اساسا مع قومية الثقافة العربية ، وحركة التفاعل بين اجزاء الوطن العربي ... لذا يمكن للدولة هنا ان تتخذ جملة اجراءات في هذا الصدد شريطة عدم تحويل الاديب الى تابع لها ، واطاحة الفرصة لمثلي الادباء المشاركة في تشريع القوانين ذات العلاقة بشؤون الادب والثقافة .

والى جانب ذلك ، تظل الخسارة الناجمة عن مجازفة الاديب بطبع كتبه تلاحقه ، لعدم توفر جبهات التضامن والدعم لمطبوعاته ، الا في نطاق معين في بعض البلدان العربية .

ثم تطف مشكلة عدم توفر اتحادات للناشرين والموزعين تنسق اعمالها مع اتحادات الادباء والكتاب العرب ، تضع حقوق الاديب العربي من مطبوعه في ايدي التجار المستغلين من بعض اصحاب دور النشر والتوزيع .. كما لا يزال الاديب العربي يعاني من قيود الرقابة على الكتاب العربي ، ومن زيادة اثمان مواد صناعة الكتاب ، ومن ارتفاع اجور الطباعة واجور التوزيع .. ومن مشكلة مجانية الكتابة والنشر ، كما انه لما يزل يعاني من احتياجه الى الضمانات المادية والعنوية في حالة الاعتقال والسجن والنفي والطاردة والمضايقة في السرزق والامس ، اذ ان احترام مكانة الاديب ودوره في المجتمع يجب ان تضمنها تشريعات وقوانين ، تحقق له الحماية الكاملة ، وتوفر له الحرية ، وتضمن مستقبله ، وتوفر له الضمانات الاجتماعية (كالتقاعد وغيرها) . اذن ماذا عملت اتحادات الادباء في الاقطار العربية التي انتهكت بها الحرية ، واعتقل الادباء وسجنوا وشردوا ، او الذين تعرضوا للفصل من وظائفهم ، او الذين تعرضوا للاعتقال او التعذيب او القتل ، او الصاق التهم بهم جزافا ، او محاكمتهم بشكل غير عادل ؟

ان الاديب العربي لما يزل في مرحلة الدفاع عن النفس ، وهو يعاني من هذه الحالة الزمنية ، فكيف يتوفر له المناخ للدفاع عن الآخرين دون ان يكون الشاهد والمدان في بلده .

وان الاديب العربي لما يزل يركض وراء الخبز والحرية ، فمتى ينجو من هذا اللهاث الزمن ليتفرغ لمعركة المصير ؟

ان نظام التفرغ لم يتوفر بعد للاديب العربي ، فتمنحه الدولة راتبا لهذا الغرض مقابل انجاز عمل معين ، ضمن فكرة معينة .. الى جانب شكوى الاديب العربي ومعاناته من امور عديدة كالسكن والعمل والدراسة والضمانات الصحية والبحوث العلمية وحقوق التأليف ، وضمان المستقبل من العوز والكبر بتشريع قانون لتقاعد الادباء .. الى غير ذلك من مشاكل تخلق بالتناوب ، وبالضرورة ، مطالب مهنية ، يحول دون الاستجابة لها واقع عدم الاهتمام - المقصود - من قبل بعض البلدان العربية ، باتحادات الادباء والكتاب ، وتوفير الرعاية الكاملة لمتسببها ... الى جانب كون الحكومات التي لم تؤمن بالحرية والديمقراطية منها واسلوب عمل وحياتة .. تقرب هذا الاديب وتبعد ذلك ، لجرد اختلافها معه بوجهات النظر او المعتد او الموقوف . وان لم يتوفر للاديب العربي الطرف الاثام للتعاون الثمر بينه وبين ممثلي الحكم والعلم والعمل ، اي بين ممثلي السلطة وبين جماهير الشفيلة وانباء الشعب وبين رجال العلم والثقافة والتكنولوجيا ، فسوف لن يستطيع احد القضاء على البؤس والامية والامراض التي زرعها الاستعمار والتخلف في جسد الامة العربية منذ حقب طويلة من الزمن ، ولما نزل تنخر في هذا الجسد لحد الان ..

لذا ، فان « وحدة ممثلي العلم والشفيلة والتكنيك » سوف تحقق المعجزات . وفي مرحلة بناء المجتمع العربي الجديد لا يمكن

استثناء دور الاديب التقدمي وطاقاته الخلاقة .. واذا استمر استغلال الوضع العام في الوطن العربي لغير صالح الاديب فسوف لن يتحقق أي عطاء فعال يخدم بناء المجتمع العربي الجديد والانسان العربي الجديد .

« ان حرية الكاتب والمصور والفنان البورجوازيين ، الذين يتمتعون بنفوذ كبير « في ارضنا العربية » ليست سوى نوع مقنوع من التبعية لكيس الدراهم ، تبعية للفساد وشراء الذمم والضمانات . وامام نتاجهم البورجوازي ، يقف « الادب الحر » الذي ينشأ حرا لان منابع قواه المتجددة دائما ليست الوصولية ولا التكاليف على الربح بل الفكر الاشتراكي ، والطموح الحقيقي لانتصار الامة العربية على العدو الرئيسي : الامبريالية والصهيونية والرجعية ومؤسسانها التنظيمية المختلفة ، لذا فقد عجلت الثورة العلمية والتكنولوجية بفرز المثقفين وتصنيفهم و « حولت قسما منهم الى شغيلة اجراء ، يقتربون من حيث مصالحهم ومواقفهم من الطبقة العاملة نظرا لانهم ضحايا استثمار مارك » كما تندمج فئات جديدة من الادباء الشباب في العملية الثورية ، لذا تبدي هذه الشبيبة الابدبية رد فعل حادا تجاه الازدراء بها وفقدان افق وضعها الاجتماعي ، لذا فهي « تهب بنشاط اكثر فاكثر للنضال ضد الانظمة التي لم تتحرر بعد تحسرا كاملا ، اقتصاديا وثقافيا وسياسيا » والتي اسهمت وتسهم في صنع نكسات امتنا العربية ، والتي تشارك بفعالية ، يوما بعد يوم ، في تنفيذ المخطط الامبريالي لاجهاض حركة التحرر الوطني والثورة ونضال فصائل المقاومة الفلسطينية الباسلة والقوى التقدمية ، وتظل هذه الانظمة تسهم في طرح حلول تصفوية وتساهم في عمليات ابادا المقاومة والقوى التقدمية ، لتكريس واقع اسرائيل كقاعدة استعمارية وكوجود غير شرعي ، شوفيني وتوسيعي واستيطاني ، على ارضنا العربية .

لذا فاننا نؤكد هنا ان المطالب التي يطرحها الاديب العربي الشاب ومن ثم حركة الشباب التي تهب بنشاط اكثر فاكثر للنضال من اجل استعادة الارض العربية المحتلة ، سوف تناضل - مهيا وسياسيا واقتصاديا وفكريا - بقدرات اكثر عمقا وصدقا واصالة ، من الادباء العرب الذين لا يتوانون عن خدمة كل الانظمة رغم طبيعتها متفاوتة والذين يرتدون لكل مناسبة لبوسها ..

اقول ان الادباء العرب الشباب ، فكرا وطاقا ، سيقع عليهم عبء النضال الاعم والاشمل من اجل انجاز المهمات الوطنية والقومية ، الى جانب مهماتهم الادبية والفنية ، في تلاحمهم الفعلي والواعي مع الطلائع الثورية في الوطن العربي ، وتحالفهم العميق مع الشفيلة والفلاحين واطراف الشعب الوطنية ، من اجل دحر انظمة الحكم المهترئة ، وفي سبيل التقدم الاجتماعي والاشتراكي .

ومن هنا فان اشتراكهم الفعال في النضال اليومي والعام وتحركهم الواعي في الساحة العربية والعالية ، من خلال نشاطاتهم المتنوعة ، ومنها نشاطهم الادبي والفكري ، لا يمنهم قطعا من النضال الدائب في سبيل تحقيق مطالب الاديب العربي المهنية لخدمة الحركة ، والتي لا ينظرون اليها بمعزل عن نضالهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي العام .

فانه « حين تتوفر الظروف الموضوعية لازمة سياسية عميقة ، فان آتفه النزاعات والتي تبدو الاكثر بعدا عن مركز الثورة ، يمكن ان تتخذ اهمية كبيرة ، وان تكون زيتنا يصب على النار ، وان تكون قطرة الماء التي تجعل الكاس يطفح » ..

من هنا فان عدم توفير الحرية للاديب في اطار الالتزام وعدم احترام مكانته ودوره في المجتمع ، وعدم حل مشاكله المهنية ، سيزيد هذه المشاكل تعقيدا ..

ومن هنا فان حل مشكلات الاديب العربي تظل مهمة عاجلة تواجه اتحاداتنا الابدبية وحكوماتنا ، والا فلربما تشكل هذه المطالب وغيرها ناقوس الخطر ، الذي يعلن بدء التحرك لاسقاط كل العوائق ومن يقف وراءها - التي تطف بوجه الاديب العربي من اجل خدمة معركة المصير ..

محمد الجزائري

بفداد